المناهج والأطوار التعليمية في الزوايا والكتاتيب القرآنية "تَحَدِّي الجزائريين للاستعمار الفرنسي"

الدكتـور: عبد القادر زرق الراس
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف- الجزائر

الملخص:

البحث يتناول مفاهيم اصطلاحية منها: الزوايا والكتاتيب، والمناهج التعليمية، وأطوارها في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي. وكيف كان الموقف الاستعماري من هذه المؤسسات ومناهجها التعليمية، وتحدى الشعب الجزائري لقرارات المستعمر بالوقوف إلى جنب التعليم الحر ودعمه بالأوقاف والتبرعات وإيواء الطلبة والشيوخ والعلماء والمجاهدين. غير أن المستعمر جرد المناهج التعليمية من روح الوعي الفكري والانتماء الحضاري وحصره في حفظ القرآن دون وسائل الفهم اللغوية أوالشرعية. وكانت الحرب سجالا بينه وبين الشعب الجزائري حتى حقق الله النصر والتمكين، لأمة المليون ونصف شهيد - عليهم رحمة الله أجمعين-.

الكلمات المفتاحية: المناهج، التعليمية، الأطوار، الزوايا، الكُتَّاب، المعمرة، المحضرة، المسيد، القندوز.

مقدمة:

نحن أمة اقرأ باسم ربك الذي خلق، قراءة مفروضة ممنهجة بمنهاج رباني، أيقنت الأمة الإسلامية بهذه الحقيقة، منذ نشأتها، فكثرت دور الإقراء في المجتمع على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذ كانت كل أسرة تهتم بشأن القراءة والكتابة وتراه حقا واجبا للأولاد على الوالدَينِ. وبعد اتساع الرقعة الإسلامية بالفتوحات شرقا وغربا، أنشئت الزوايا والكتاتيب، فكانت من أسبق المدارس والمعاهد التعليمية وجودا في العالم الإسلامي، إذ كان ظهورها في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أنشأ إلى جانب المسجد أو في بعض زواياه كتاتيب للأطفال يتعلمون فيها القراءة والكتابة، وتوارثت الأمة ذلك جيلا عن جيل إلى اليوم.

والجزائر كغيرها من دول الإسلام اعتنت بهذه المؤسسات التعليمية حتى قيل: إنه كان وقت دخول الاستعمار الفرنسي في الجزائر العاصمة وحدها أزيد من مائة وثلاثين مركزا للتعليم – بين مسجد وزاوية وكُتَّاب – يتعلم فيها الكبار والصغار الرجال والنساء، وكانت لهم فيما بعدُ الحصنَ الحصين للتغلب على سياسة التجهيل المتبعة من طرف المستعمر الغاشم. فما مفهوم المناهج التعليمية؟ وما هي الزوايا والكتاتيب؟ وكيف كان الموقف الاستعماري من هذه المؤسسات ونشاطها؟ تلك هي الإشكالات التي يجيب عنها البحث، بعنوان: المناهج التعليمية في الزوايا والكتاتيب القرآنية – وتحدي الجزائريين للاستعمار الفرنسي، مقسما الموضوع إلى مبحثين وخاتمة.

أ/ مفاهيم اصطلاحية: مفهوم المناهج التعليمية، مفهوم الزوايا والكتاتيب القرآنية، الموقف الاستعماري من هذه المؤسسات.

ب/ الزوايا والكتاتيب الحصن الحصين للجزائريين: سبل التحدي للمستعمر، الأطوار التعليمية ومناهجها في الكتاتيب، يوميات الطالب في الزاوية والكُتَّاب. ثم خاتمة على شكل نتائج استنتاجية.

أ/ مفاهيم اصطلاحية

1- مفهوم المناهج التعليمية:

المناهج جمع مِنْهَاج، قال الراغب الأصفهاني: المنهاج من النَّهْجِ وهو الطريق الواضح، نَهَجَ الأمرُ وأَنْهَجَ وَضَحَ ومَنْهَجُ الطريقِ ومِنْهاجُه[1]. وقال ابن منظور: نَهَجَ: طريقٌ نَهْجٌ: بينٌ واضحٌ، وهو النّهْج...والمنهاج كالمنهَج وفي التنزيل: "﴿ ...**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ...﴾[2]. وأَنهَجَ الطريقُ: وَضَحَ واسْتَبَان وصار نَهْجا واضحا بينا[3].

فالمناهج التعليمية: هي الطرق التي تُسلكُ في عملية التعليم، من حيث البرامج المقررة والكيفية التي تُوَظَّف وتُبلَّغُ بها رسالة التعليم. والمناهج التعليمية في الجزائر:كانت على العموم تقليدية بوسائل وهياكل بسيطة: لوح وقلم ودواة، وحفظ للقرآن والمتون وجلوس في حلقات الشرح للمتون من قبل الأساتذة والشيوخ. ومقرراتها في الغالب مُوَحَّدة في جميع الزوايا والكتاتيب، تراعي الوحدة المذهبية المالكية، والخصوصية الثقافية الفكرية للأمة، مما جعلها سدا منيعا وحصنا حصينا للمجتمع المتَّحِد المتماسك دينيا وسياسيا وثقافيا...يُسْتَعْصَى كسرُ وحدته أو خرق صفه.

2- مفهوم الزوايا والكتاتيب:

أ- الزوايا: جمع زاوية، قال ابن منظور: الزاوية واحدة الزوايا[4]. وقال: زاوية البيت: ركنه والجمع زوايا، وتَزَوَّى صار فيها...والزاوية: موضع بالبصرة[5]. فالزاوية: هي ركن البيت، ومجمع الجدران، والركن الذي يقام عليه البنيان. قال ابن فارس: وزاوية البيت، سُميت، لاجتماع الحائطين[6]. فالزاوية: هي مكان مجمع الطلبة والمريدين، وأهلِ البر والإحسان والمحبين. وقيل هي من الانزواء والانطواء لما فيها من عزلة وانقطاع عن الأهل والمجتمع. وفي الوسيط: زَوَى صار في زاوية البيت ونحوه، والشَّيءَ: طواه وجمعَه وقبضَه...وانزوى: صار في زاوية البيت ونحوه...وانزوى: انقبضَ وتَجمَّع...الزاوية: المسجد غير الجامع ليس فيه منبر،... الزاوية: مأوى للمتصوفين والفقراء[7]. فالزاوية بهذا المنظور هي: مكان مخصص لإيواء الطلبة، والمتصوفة، والفقراء، والغرباء، تحت إشراف محسن تساعده جماعة خيرية أو قرابة من عشيرته لتسيير شؤونها المادية والمعنوية، ومهمتها تحفيظ القرآن وتعليم العلم، وتزكية النفوس بالأوراد والأذكار عبر طريقة معينة من الطرق الصوفية، أو مطلقة.

ب- الكُتَّابُ:

المكْتَبُ: مَوضعُ الكُتَّابِ، والمكتبُ والكُتَّابُ: موضع تعليم الكُتَّابِ، والجمع الكَتَاتيب والمكَاتِب. قال المبرد: المَكْتَبُ موضع التعليم، والمُكْتِبُ المعلِّمُ، والكُتَّابُ الصبيانُ، قال: ومن جعل الموضع الكُتَّابَ، فقد أخطأ[8]. فالكُتَّابُ: جمع كَاتِب وهو من صيغ المبالغة المسموعة مثل قوله تعالى: ﴿**وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا**﴾[9] وهو أبلغ من فُعَال[10] رجل كاتب والجمع كُتَّاب وكَتَبَة، قال ابن مالك في الألفية: وفُعَّلٌ لفَاعِلٍ وَفَاعِلَة***... وَمِثْلُهُ الفُعَّال فِيمَا ذُكِّرا[11].

فُعَّالٌ: جمعُ فاعِل لمحترفٍ عملا دائما، مثل: تُجَّار، عُمَّال، كُهَّان، عُبَّاد، وكُتَّاب...فالكُتَّابُ: اسم جمع للصبيان الذين يتعلمون الكِتَابة والقراءة، وأطلق على الموضع تجوزا، ولهذا يرى المبرد: من الخطأ أن يُطلق لفظ الكُتَّاب

على الموضع الذي يُتَعلم فيه، كما تقدم. ولكن الاستعمال غلب بهذا الشكل لأنهم يُطلقونه على مكان التعليم القرآني.

"فالكُتَّاب: عبارة عن مكان مستقل، أو غرفة في منزل أو حجرة مجاورة للمسجد، أو ملحقة أو خيمة من جملة خيام الحي في البادية (خيمة مُؤَدِّب)"[12]. فالمدرسة القرآنية الثابتة أو المتنقلة في البادية بشكل خيمة يطلق عليها اسم: كُتَّاب، امْسِيد، الجَامِع، الشَّرِيعة، المعَيْمِرة، تَمعْمِيرت، المحْضَرة[13]. كلها مصطلحات موجودة في الجزائر حسب المناطق من الشرق والغرب، والحضر والبادية، وتعني مكان التعليم القرآني.

3- الموقف الاستعماري من الزوايا والكُتَّاتيب، بل من التعليم كله.

المستعمر كالخفاش لا حياة له في النور العلمي، بل حياته وراحته في الظلام والجهل، فبعد أن اكتشف الفرنسيون أن هذا التعليم القاعدي القرآني تنبني عليه الدراسات الإسلامية، والوعي الثقافي الديني لدى المسلمين، وهو أمر لا يخدم وجودهم في البلاد، ولكنّ منعَه فورا يشكل خطرا سياسيا، قرروا الإبقاء عليه مع تجريده من محتواه وعرقلة مساره، وهدم مؤسساته شيئا فشيئا حتى يموت حتف أنفه، أو يصبح طُلَّابه ومؤسساتُه أشباحا بلا أرواح، نعم مكر دبر بليل.

حصر التعليم في حفظ القرآن وسياسة التجهيل

جعل المستعمر التعليم محصورا في حفظ القرآن "بكيفية تبعث السآمة والملل، حيث يكلف التلميذ بحفظ ما يكتب من غير فهم ولا فكر ولا تطبيق، وكل ما عند الشيخ عصاه المخيفة"[14]، كما قال أحد العلماء. يعني قرآنا بلا فهم ولا فكر ولا وعي ولا تطبيق، بل ولا جديد في معلومات الطالب اللغوية ولا الثقافية؛ فالمتعلم الذي لا يفهم ما يسمع أو ما يقرأ لا يضيف جديدا إلى مفرداته اللغوية ولا ثقافته الإسلامية، إذ "فهم معاني الألفاظ شرط لاكتساب اللغة"[15] والثقافة عموما.

فأصبح الطالب المسكين يقضي مدة طويلة في حفظ القرآن من الصبا إلى أن يجاوز البلوغ إلى الشبيبة[16]، وهو مع استظهار القرآن دون زيادة، وربما تُرِك له المجال لحفظ بعض المتون"دهرا طويلا دون أن يعرف ما موضوعُ تلك المتون التي كان يُعْنِتُ نفسه في حفظها؟ ولا كيف كانت علاقتها بالعربية الأدبية؟[17]. هكذا قضى الاستعمار على روح المدرسة الإسلامية الجزائرية بالمكر والخداع في المناهج، وبالهدم والتخريب ومصادرة الأوقاف -المصدر المالي الوحيد- للنظام التعليمي والمؤسسات الخيرية.

البديل الاستعماري

استبدلت فرنسا مدارس وبرامج لصالحها وعلى مقاسها، من بداية الاحتلال كان الهدف الفرنسي هو القضاء على التعليم القرآني العربي، واستبداله تدريجيا بتعليم فرنسي شكلا ومضمونا، كما قال أبو القاسم سعد الله: الزوايا الست التي كانت في مدينة الجزائر- حين الدخول الفرنسي- اختفت جميعها، ولم يبق منها بعد سنة1846م سوى واحدة كانت تقع في سوق الجمعة[18]. يعني في ظرف ست عشرة سنة حطم التعليم العالي في العاصمة، بتحطيم مؤسسات النظام الداخلي للطلبة، وأُنْشئتْ مدارس فرنسية المضمون، يتفرغ فيها التلميذ بعد حفظ القرآن إلى اللغة الفرنسية وموادها وتاريخ فرنسا[19]. ليُصْنَعَ على عينها وبمقاسها، تَصْنَعُ منهم دعاة وقضاة ومفتين و إطارات، قال البشير الإبراهيمي-رحمه الله- عن خريجي هذه المدرسة: "عدم الكفاءة

والمبالغة في الخضوع والانقياد-لفرنسا- هي الشهادات الوحيدة التي يمكن أن يعتزوا بها"[20]. لكنَّ الشعب الجزائري بفطرته وحسن تدبير حكمائه، نبذ هذا التعليم المغشوش والمخدوع، وبقي ذلك التصور في ذهنه حتى للاستقلال، أذكر يومَ أَنْ أُدْخِلْنا إلى المدرسة الابتدائية وتركنا الكُتَّابَ، كان جدي رحمه الله- عم الأب- يقول لنا: تركتم القرآن وذَهَبْتُم إلى قراءة إبليس، هي صورة مدرسة النظام الاستعماري بقيت راسخة في الأذهان، وكانوا يفضلون الجهل والأمية على المدرسة الفرنسية، وثقافتها ومناهجها التربوية، لأنهم يرونها كالسم في العسل، وهم محقون.

والمدارس العربية الحرة هي مَلجَأُهم الوحيد لتعليم أبناءهم، ولذلك لما صدر مرسوم فرنسي سنة 1938م يمنع فتح مدرسة حرة إلاَّ برخصة، اعتبر ابنُ باديس ذلك اليومَ هو أكبر يوم مشؤوم في تاريخ الإسلام بالجزائر[21]. لأنه يعلم أنها لا ترخص إلا لعلمائها، ممن تنبذهم البلاد والعباد، وهو القضاء النهائي على التعليم في زعمهم وهيهات.

ب/ الزوايا والكتاتيب الحصنُ الحصين للجزائريين:

1- سبل التحدي وتيسير الضبط القرآني؛ تشبث الجزائريون بمؤسسات التعليم الحر، واستعان شيوخها بضوابط يسمونها "الحَطِّيَة" بحيث يُحط على الكلمة رقمٌ يشير إلى عددها في القرآن، أو رسمها بهذه الصورة الصرفية أو الإعرابية في مرسوم الخط، يُستعان بها مع (أَنْصَاص) الرسم والضبط في تثبيت القواعد ومعرفة الفروق[22]. وهي ضوابط تحدى بها طلبة الزوايا والكُتَّاب سياسة التجهيل الاستعماري في الجزائر، لما مُنِعوا من الدرس اللغوي الذي يُعْطِيهم الضبطَ الصرفي والإعرابَ النحوي الصحيحين، عمدوا إلى الضبط العددي في مثل قولهم:

"يخشَ من غير ياء في ثلاثةٍ *** في النور والنساء وفي براءةٍ".
وكذا قولهم: قومَه بفتح الميم*** ستة أحرف على التمام
في هود وزخرف و الأحقاف*** وطه ثم اثنين في الأعراف[23].

يقصد ﴿**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً...**﴾[24] هذا اللفظ مَنْ يعرف جوازم المضارع يعرف بأَنَّ لام الأمر يجزم المضارع فيُحذف حرفُ العلة "الألف" الذي سماه هو "الياء" دون إشكال في الإملاء عنده. والذي يعرف نصبَ المفعول به لا يحتاج إلى عدّ (قومَه) في مثل: "﴿**وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ...**﴾[25]. لكنْ لما عَجَزَ أو حُرم من معرفة قواعد اللغة، استعان ب"الأنصاص والحَطِيَة" - لسانيات حسوبية- لتكون سياجا من القواعد تحفظ قرآنه من الأخطاء[26]،وتيسر له سبل الحفظ والإتقان لكتاب الله. وقد تكون ضبطا لما خَرَقَ قاعدةً نحوية كقولهم:

وصالحُ التحريمِ أو سَنَدعُ *** في عَلَقٍ وجاءَ يومَ يَدعُ
في قَمَرٍ وفي الأسْرَى ويَدعُ*** وَيمْحُ في شُورَى عَرَاهَا جَدْعُ
بِحَذفِ وَاوٍ لَا لجازمٍ عَرَضْ*** بَل اعْتِباطاً حَذفُهَا قَدِ افْتُرِضْ[27].

هذه الواو حذفت في مرسوم الخط القرآني اعتباطا، أي دون علة جازم ونحوه، فضبطت باللسانيات الحسوبية بدل القاعدة النحوية. وتحدى الطلبة المحتل الذي جرد مناهجهم التعليمية من وسائل الفهم

والوعي، بقصد تعسير الحفظ عليهم "لأن الفهم هو الجسر الذي نَعْبُرُ عليه للحفظ المتقن"[28]. كما يقول ماجد زكي الجلاد. "فالحَطِيَّة و الأنصاص" هما وسيلتان للحفظ المتقن والضبط السليم للقرآن الكريم، وكذا العُدَّة وطُولُ المدَّة، هما وسيلتا تحد أيضا، بهما تمسك الجزائريون في طلب العلم والتعليم كعقيدة، خصوصا تعليم القرآن ومبادئ الدين، التي هي شعار المسلمين "أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم"[29]. فما من قرية أو بدو أو حاضرة، إلا والكُتَّاب يرافقها حيث حلت أو ارتحلت، قال أبو القاسم سعد الله: كان بمدينة الجزائر-وحدها- أكثر من مائة مدرسة قرآنية -كُتَّاب- عندما دخلها الاحتلال الفرنسي [30]. مدارس للابتدائي والمتوسط والثانوي، وأما التعليم العالي؛ الذي كانت تُعْنَى به الزوايا ذات النظام الداخلي والتعليم الشامل فيقول عنه أبو القاسم: كان عدد الزوايا في الجزائر-العاصمة- وحدها ستا[31]. كل هذا في مدينة محصورة ربما تكون بمثابة بلدية في عصرنا الحالي. إذاً فالتعليم كان مزدهرا والأمية قليلة في الوسط الجزائري كله قبل الاستعمار الفرنسي، تعليم شامل كامل بشهادة بعض جنرالات فرنسا في تقرير بلَّغ به حكامَه عن الوضع الجزائري عند احتلالها فقال: تعليم مزدهر يتألف من مستويات التعليم الثلاثة المعروفة اليوم: الابتدائي والثاني والعالي[32].

شاهد من أهلها أضِفْ إليه ما نقله التاريخ من ذكر علماء فطاحل مثل: الأمير عبد القادر، وكاتِبه عليّ الجفاف صاحب التآليف العديدة، ومحمد أبي القاسم البوجليلي (1829 -1898م) صاحب التآليف والإجازة في الطرق النافعية العشر. وغيرهم كثير ممن خلد التاريخ أسماءهم في المثقفين والعلماء الجزائريين، مثل الشيخ الشعيبي (ت1918م) بعين مران الشلف، صاحب زاوية سيدي أبي شعيب سليلة الأزهر الشريف، وهو تلميذ الشيخين؛ عليش والأجهوري- رحمهما الله- في قائمة طويلة لعلماء الجزائر – رحمة الله على الجميع-.

2- الأطوار التعليمية: كان التعليم في الكُتَّاب والزوايا حرا مجانيا وفي الغالب ويمر عبر طورين:

الطور الأول: الحفظ القرآني بجميع مراحله من الحروف الهجائية إلى الختم والإتقان، ويطلق عليه طالب قرآني، يسمونه "قندوزا" إذا كان يقرأ ويذهب إلى بيته و"مسافرا" إذا كان مقيما في الزاوية أو المدرسة ذات النظام الداخلي، وهذا يبدأ في سن مبكر- في الخامسة- من عمر الولد غالبا[33]. ويقولون: "تقدم دراسةُ القرآن إيثارا للتبرك والثواب، وخشية ما يعرض للمولود في جنون الصبا من الآفات والقواطع"[34]. فيغتنمون فرصة الصبا ليسبق إلى ذهنه القرآن كشعار ديني ومقصد تبركي، وخوفا من أن ينفلت الولد ويطيش مع جنون المراهقة، وكانوا يقولون: "إذا أتى به أبوه المكتب، أخذه ملك من يده ثم قال: اجلس على نية أبيك"[35]. هذا الطور أَبْقَتْ عليه فرنسا بعد أن جردته من كل صلة بالعلم والثقافة "فمنعت المؤدبين من تجاوز الحفظ إلى التفسير والتفهيم أو تعليم أي مادة أخرى معه"[36].

الطور الثاني: دراسة السنة أو العلم، ويعنون بها الدراسة اللغوية والفقهية، وتكون بعد حفظ القرآن وفي الغالب تكون في الزوايا والمدارس القرآنية الداخلية، حسب شهرة أساتذتها وكفاءاتهم العلمية، يتوافد عليهم المتعلمون، فتقام المرافق والغرف والخَلْوات* لإيواء هؤلاء الغرباء بجوار المساجد والزوايا[37]. ومصدر تمويلهم قائم على الأوقاف وتبرعات المحسنين ونظام الرتبة، والتي تَعْني خبزاً أو موادَ غذائية يلتزم بها المتبرع يوميا تدفع لهؤلاء المتعلمين في المدارس الداخلية.

أما الكيفية التعليمية في الزوايا والكُتَّاب فكالتالي:

أ) الطور الابتدائي القرآني: يبدأ فيه بتلقين الصبي الحروف الهجائية على الطريقة الأندلسية وهي: " أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش ه و ي"[38]. ثم تدريبه على التهجي: ونطق الصوائت- الحركات- من النصب إلى الضم والخفض والسكون. ثم مرحلة التحنيش-تشريط اللوح-بمؤخر قلم القصب أو قلم الرصاص، والصبي يتبع ذلك بالصمغ. ثم تدريبه على قراءة ما كتب، ويبدأ بحفظ السور القصار- الفاتحة والمعوذتين والإخلاص... فإذا تَدَرَّب على الكتابة والحفظ يبدأ يُملي عليه الشيخ وهو يكتب مقدارا (خروبة) وهي أقل من الثمن، فإذا تمرن أكثر كتب ثمنا ثم ربعا ثم نصفا حتى يختم القرآن- السلكة- وتكرر السلكة والخَتمَات حتى يحفظ القرآن جيدا[39].

كل ذلك بوسائل تقليدية بسيطة هي: لوح، وقلم القصب، ودواة السمق-من صوف الغنم- والطين- صلصال-[40]. والقراءة في الغالب على رواية ورش عن نافع، ثم رواية قالون[41] في بعض الأحيان. وطريقة الحفظ تكون بعد إملاء الشيخ وكتابة اللوح، يشرع الطالب في الحفظ بصوت مرتفع، ويصحح له الشيخ اللوحة ويقرأها معه، ويقرأها كذلك مع زملائه الطلبة حتى يحفظها، وبعد حفظ القرآن كله يأتي الختم والاحتفال به في المنازل، وأخيرا التخرج كطالب والقرآن في الصدر[42]. ويقولون: فلان مسرح في القرآن، يعني حفظه جيدا وأجازه شيخ مُقْرِئٌ في ذلك.

ب) طور السُّنَّة؛ تعلم العلم: يبدأ بقراءة؛ الآجرومية، و ابن عاشر، وملحة الإعراب للحريري، كل ذلك حفظا في اللوح. وبعدها مستوى أعلا: حفظ قطر الندى لابن هشام الأنصاري، وحفظ ألفية ابن مالك، ولامية الأفعال، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، ونحوها. ثم مستوى النجباء أصحاب الدراسات العليا، تتضمن المتون والكتب الموسعة بشروح أكثر عمقا واستيعابا مثل: الألفية بشروح الأشموني والصبان، وحفظ نصوص أدبية، ومتون في أصول الفقه، والبيان والعروض، ومختصر خليل بشروحه في الفقه...[43].

أما كيفية إلقاء الدروس فهي كالآتي:

يجلس الأستاذ في المجلس وحوله الطلبة، ويقرأ أحدهم المتن ويُسَمَّونه - المدوِّنَ- ويشرح الأستاذ الصورة-عبارة المتن- ويقرأ بعض الشروح أو شرحا معينا[44]، لمقدار محدد من الكتاب وتنتهي الحصة. ويتفرغ الطلبة خارج حصة الأستاذ للمطالعة وحفظ المتون ومراجعة الدروس جماعيا، يراجع لهم أحدهم أي الأقدر فيهم ويسمونه"المعيد للدرس"[45]. والمواد التي تدرس في الزوايا غالبا هي:

الفقه: ابن عاشر، رسالة ابن أبي زيد، أقرب المسالك للدردير، أسهل المسالك، ومختصر خليل...

النحو: الآجرومية، ملحة الإعراب للحريري، قطر الندى، ألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل أو المكودي...، وهما مادتان أساسيتان غالبا في كل الزوايا والمدارس الداخلية. وهناك مواد تختلف من زاوية إلى أخرى حسب ثقافة الأستاذ مثل: جوهرة التوحيد في العقيدة، قرة العين في أصول الفقه، الرحبية في الميراث، لامية الأفعال في الصرف، البيقونية في مصطلح الحديث، الجوهر المكنون في البلاغة، السلم في المنطق، وغيرها، من المواد اللغوية والشرعية المعروفة في المناهج التقليدية.

3- الاستعمال الزمني لدى طلبة الزاوية والكُتَّاب؛ تتسم الدراسة في هذه المؤسسات بالدوام والاستمرار، خاصة الطلبة الدّاخليين، إذ يبدأ الطالب يومَه قبل الفجر، مع الحفظ للقرآن أو المتون، وفي الشتاء يقرؤون الراتب-القراءة الجماعية- قبل صلاة الفجر ويسمونها " النوضة"، وبعد الفجر يتفرغون لمحو الألواح والجلوس لكتابتها من إملاء الشيخ[46]

ثم يأتي دور تصحيحها عند الشيخ، بعد انتهاء جلسة الإملاء الجماعي الذي يكون على شكل دائرة، ويستملي كل واحد الشيخ عندما يأتي دوره بعبارة معينة مثلا يقول: يا أيها المدّثر يا سيدي؟ فيقول الشيخ: قم فأنذر، يكتبها التلميذ ثم يأتي دوره كذلك فيقول: قم فأنذر يا سيدي؟ فيقول الشيخ: وربَّك فَكبرْ...وهكذا حتى ينتهي الثُمْنُ أو المقدار الذي يراه الشيخ كافيا فيقول: انتهى فيُقبِّل التلميذ رأسَ الشيخ وينصرف يقرأ في لوحه طول النهار، وبعد المغرب يراجعون القرآن جماعة، ثلاثة أحزاب أو خمسة أحزاب على حسب الوقت، وبعد العشاء يقرؤون في ألواحهم حتى ساعات متأخرة من الليل ينامون، وهكذا دواليك. ويوم الأربعاء مساءً يأخذون راحةً، تستمر يوم الخميس وصبيحة الجمعة، ومساء الجمعة يستأنفون الدراسة، وهي راحة قررها عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- لما عاد من فتح الشام- بعد تسلم مفاتيح القدس- لقيه التلاميذ فرحا به فمنحهم هذه الفترة راحة في الأسبوع[47]، واستمر عليها نظام التعليم في الكُتَّاب والزوايا إلى اليوم.

أما طلبة الدروس العلمية فيجلسون مع الأستاذ في الحلقة من الصبح إلى الزوال بنظام الوقفة، يعني البعض يقرأ حصة فقهية مثلا، وبعد انتهائها يقرأ آخرون حصة نحوية مثلا وهكذا...حتى الزوال. ثم تستأنف بعد العصر حتى يقرب المغرب، وبعد المغرب يقرؤون الحزب الراتب أو تكون حصة عامة يحضرها سكان القرية والطلبة، وبعد العشاء المراجعة الجماعية حتى الثلث الأول من الليل[48]. هكذا يكون الاستعمال الزمني في غالب الكُتَّاب والزوايا. هو تعليم بسيط ومبروك، أتى أُكْلَه وحفظ للأمة قِيَمَها، وصان لها وحدتها الدينية، ولحمتها الوطنية، جزى الله أهله عنا خير الجزاء، وأحسن لهم الثناء.

خاتمة

بعد استقراء المناهج التعليمية في الزوايا والكتاتيب القرآنية أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر، توصلت إلى نقاط أهمها:

1) الزوايا والكُتَّاب: هي مؤسسات خيرية تعليمية عريقة في تاريخ الحضارة الإسلامية، والمغاربية خصوصا.

2) الكُتَّاب: جمع كَاتِب وتَعني المدرسة القرآنية التي يُتعلم فيها الكِتَابة، وتحوي ومُكَتِّباً وكَاتِباً - الشيخ والتلميذ-.

3) المناهج التعليمية: هي المقررات والطرق والكيفيات التي تُبلَّغ بها رسالة التعليم.

4) المناهج التعليمية في أغلب الزوايا والكُتَّاب بالجزائر كانت تقليدية ذاتَ بعد عربي إسلامي عريق.

5) قرر المستعمر القضاء على التعليم بمصادرة الأوقاف وتدمير المؤسسات وتجريد التعليم من قيمه الحضارية وانتمائه العربي الإسلامي.

6) تحدى الشعب الجزائري قرارات المستعمر وبقي وفيا للتعليم العربي الحر، ودعم الزوايا والكُتَّابَ وجمعيةَ العلماء المسلمين الجزائريين إلى غاية الاستقلال.

7) رغم كل التضييق الاستعماري على الزاوية والكُتَّاب فإنهما خرجتا فطاحلة من العلماء مثل: ابن أبي شنب أول دكتور جزائري في الأدب، والبشير الإبراهيمي، وابن باديس، وأحمد حماني، والجيلالي الفارسي، وغيرهم كثير.

8) يجب علينا أن نعيد للزاوية والكُتَّاب دورهما التعليمي والروحي إذا أردنا مجتمعا موحدا متماسكَ الفكرِ والسلوكِ

وبالله التوفيق، والمجد والخلود للشهداء الأبرار، والعلماء العاملين - رحمهم الله أجمعين- ونحن على دربهم سائرين إن شاء الله.

الهوامش

[1]- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، دار ابن الجوزي القاهرة، ط 1، سنة2012 ص560.

[2]- المائدة، الآية 48.

[3]- لسان العرب، ابن منظور، تح: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصدق العبيدي، دار احياء التراث العربي لبنان، ط1، سنة 2010، ج8، ص: 526 .

[4]- المرجع نفسه، ج4، ص: 325.

[5]- المرجع نفسه، ص: 326، 327.

[6]- مجمل اللغة، أحمد بن فارس، تح: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة بيروت، ط2، سنة 1986، مج1 ص: 444، مادة (زَوَى).

[7]- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية القاهرة، ابراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وغيرهما، ط2، سنة 1972، ص: 449 .

[8]- لسان العرب، ابن منظور، مرجع سابق، ج7، ص: 434.

[9]- سورة نوح، 22.

[10]- نظرية اللغة العربية، -تأسيسات جديدة لنظامها وأبنيتها- عبد الملك مرتاض، دار البصائر الجزائر، د ط ، سنة 2012، ص: 472.

[11]- متون النحو والصرف، محمد سليمان محمود الغنام، شركة القدس للنشر والتوزيع القاهرة، ط1، سنة 2010، ص: 60 .

[12]- رسالة المسجد، السنة 13، العدد الخامس، سبتمبر أكتوبر 2015،وزارة الشؤون الدينية والاوقاف الجزائر، مقال: التعليم القرآني في الطور التمهيدي، مسعودة عطاء الله، ص:50.

[13]- المرجع نفسه، ص:50، وكذا ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، دار البصائر الجزائر، طبعة خاصة، سنة 2007، ج3 ص: 38.

[14]- ينظر: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية، مازن صالح حامد مُطَبقاتي، تقديم: أبي القاسم سعد الله، دار القلم دمشق، ط1، سنة 1988، ص: 46.

[15]- مهارات الاتصال اللغوي وتعليمها، محسن علي عطية، دار المناهج للنشر والتوزيع عمان، ط1، سنة 2008، ص: 32.

[16]- ينظر: مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، تح: حجري عاصي، دار ومكتبة الهلال بيروت، د ط، سنة 1988، ج1، ص: 334 .

[17]- نظرية اللغة العربية، عبد الملك مرتاض، مرجع سابق، ص: 463.

[18]- تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج3، ص: 23.

[19]- ينظر: المرجع نفسه، ج3، ص: 37 .

[20]- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مازن صلاح حامد مطبقاتي، مرجع سابق، ص: 50.

[21]- التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م ، عمار بوحوش، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1، سنة1997م، ص: 263 .

[22]- ينظر: حياة الكتاب وأدبيات المحضرة، عبد الهادي حميتو، مرجع سابق، ج2، ص: 687.

[23]- أخذتها مشافهة من شيخي المسعودي - رحمه الله- السنة الدراسية 1984/ 1985م، بمسجد قاسمي عبد القادر الكريمية.

[24]- النساء الآية: 9.

[25]- الأعراف الآية: 155.

[26]- ينظر: حياة الكتاب وأدبيات المحضرة، عبد الهادي حميتو، مرجع سابق، ج2، ص: 566.

[27]- مسائل قرآنية منظومات، محمد الطاهر التليلي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، د ط، سنة 1986، ص: 88، 89

[28]- مهارات تدريس القرآن الكريم، ماجد زكي الجلاد، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة عمان، ط1، سنة2007م، ص: 318.

[29]- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، تح: حجري عاصي، دار ومكتبة الهلال بيروت، د ط، سنة1988، ج1، ص: 334.

[30]- ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج3، ص: 37.

[31]- المرجع نفسه، ص: 22.

[32]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 22.

[33]- حياة الكتاب وأدبيات المحضرة، عبد الهادي حميتو، مرجع سابق، ج2، ص: 561.

[34]- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ج1، ص: 335.

[35]- حياة الكتاب وأدبيات المحضرة، عبد الهادي حميتو، مرجع سابق، ج2، ص: 557.

[36]- تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج3، ص: 36.

[*]الخَلْوَة: غُرْفَة صغيرة خاصة لطالب أو طالبين يحقظ ويطالع فيها منعزلا.

[37]- ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج3، ص: 23.

[38]- مدخل إلى مصادر اللغة العربية، سعيد حسن بحيرى، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع القاهرة، ط2، سنة2008، ص: 355.

[39]- ينظر: حياة الكتاب وأدبيات المحضرة، عبد الهادي حميتو، مرجع سابق، ج2، ص: 566.

[40]- تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج3، ص: 36.

[41]- حياة الكتاب وأدبيات المحضرة، عبد الهادي حميتو، مرجع سابق، ج2، ص: 567.

[42]- تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج3، ص: 36.

[43]- المدارس العتيقة واشعاعها الأدبي والعلمي بالمغرب، المهدي بن محمد السعيدي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب، ط1، سنة 2006، ص:274،275.

[44]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 275.

[45]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 277 .

[46]- ينظر: حياة الكتاب وأدبيات المحضرة، عبد الهادي حميتو، مرجع سابق، ج2، ص: 581.

[47]- الرعاية النبوية للشؤون الدنيزية، عبد الله نجيب سالم، المكتبة العصرية بيروت، ط1، سنة 2005، ص: 29.

[48]- ينظر: المدارس العتيقة واشعاعها الأدبي والعلمي بالمغرب، المهدي بن محمد السعيدي، مرجع سابق، ص: 277.